الأديب الميت !..

بقلم اسمى طوبي

الاديب ملك الامـــة .. لست ادري من الذي قالهـــا اول مـــا قيلت فوضع في فم الكثيرين عذراً لتطفلهم على حياة الاديب ميتاً ...

والتملك كما أعلم مضى عهده.. وحتى تملك العبيد .. الا ان يكون صـــاحب القول عدّ الاديب شيئاً تافهاً .. حجراً او حفنة تراب يتملكها من يشاء دون ان يخشى حساباً .

ان الاديب الذي يريد هو ان يكون ملكاً للامة يكتب مذكراته ويضمنها كل اسراره ثم ينشرها او يوصي ان تنشر بعد وفاته .. اما ذاك الذي لا يفعل فقد قال صراحة ان اسراره هي ملكه الخاص ويجب ان تذهب معه الى قبره .. وإرادة الميت تحترم دائماً .

لقد عثر الباحثون بين آثار ميّ على مئة رسالة غرامية ارسلت اليها من ادباء تعشقوها عرباً او اجانب. وسروا باللقطة لانها تؤلف كتاباً مضمون الرواج يجذب القراء ... ولكنهم فضلوا لامر ما – لعله الخشية من الاقلام الثائرة – فضلوا استشارة فيلسوف الجيل لطفي السيد .. او عـــلى الاصح ضمان موافقته سلفاً .. واجاب ابو الجامعة : لا .. قالوا : ولماذا ؟ قال : ان اسرار ميّ هي اسرارها الخاصة .. وحتى كاتبو هذه الرسائل لم يعد لهم حق التصرف بها بعد ان ارسلت اليها .. قالوا : يا استـــاذنا ولكنك رجل مستنير سبق عصره بخمسين عاماً !. قال بجزم : هذه مؤامرة عـــلى سر امرأة وكفى .. قالوا : ولكن للتاريخ .. قال : ومن الذي ولجكم بالتاريخ ؟..

ان اصحاب الرأي القائل بان الاديب هو ملك الامة او ملـــك قرائه انما يستندون الى حجة قوامها ان انتاج الكاتب انما يتأثر بحياته الخاصة .. اي انه ينتج انتاجاً قوياً او رقيقاً ، عاطفياً او عقلياً ، وفق الظروف التي تحيط به وقت الانتاج .. ومن حق من يقرأون الاديب ان يعرفوا كيف كانت ظروف حياته عندما انتج هذا المؤلف او ذاك ..

واصحاب هذا الرأي كأنما يريدون ان يتأثر القارىء لا بالكتـــاب بل بمن كتبه .. فكأنهم نسوا الحكمة القائلة .. «انظر الى ما قيل لا الى من قال» طالع ما بين يديك مجرداً من كل المؤثرات؛ ليكن تأثرك انت بمقدار ما فيه من حكمة او عاطفة ، ولا تدع لصاحب القول ، حيـــاً او ميتاً ، لا تدع لشخصيته ، ان تؤثر عليك .

ولست ادري من اين جاءتنا هذه البدعة .. بدعة نبش جثة الميت من قبرها ثم وضعها على المشرحة ، وغرز السكاكين فيها ، بينما نحن لم نغرز هذه السكاكين وصاحب الجثة حي يستطيع الدفاع عن نفسه ... ولكن اغلب ظني اننا اخذناها عن الغرب ، فمن المألوف هناك ان يكتب الكتاب عن حياة الاديب الخاصة ما يشاؤون كما فعلوا مؤخراً بمدام دوستايل وعشاقها..

ولكن من يحذون حذو الغرب في هذا المضمار ينسون أهم نقطـــة في الموضوع، وهي ان مزاج الناس في معظم تلك البلدان لا ينفر من هذا .. فكتور هيجو مثلاً صاحب البؤساء ترك زوجته واولاده وعاش مع مدام دوره اعواماً ، ولما توفيت سار في جنازتها حاسر الرأس يتلاعب الهواء بشعوره البيضاء . ووقف الناس يعزونه على ضريحها .. لا هو بالخجول ، ولا مزاجهم بالمشمئز .

ومدام دوستايل عاشت حياتها مكشوفة لا تستر فيها .. كانت تعايش وهي في الخمسين عشيقاً دون الثلاثين، الى غير ذلك مما هو معروف عنها .

وازاء هذه النقطة الهامة الاولى تجيء نقطة هامة اخرى وهي ان الاديب الذي يعيش حياته مكشوفة لا يبالي ما يقوله الناس عنه في حياته لن يضيره اي شيء يقال عنه بعـــد مماته .. بل الواقع ان من يكتبون عن هؤلاء الادباء لا يفشون اسراراً اذ لم يكن في حياتهم اسرار وكل معاصريهم يعرفون كيف عاشوا .

ولقد عرفنا نحن في فترة من التاريخ العربي شيئاً كهذا .. كان عندنا ادباء بل شعراء يفاخرون بمباذلهم. فبشار بن برد مثلاً الذي فاخر بالفسق والفجور والذي قُتل تلك القتلة المشهورة بسبب فجوره .. وعمر بن ابي ربيعة الذي عاش غزلياته واذاعها شعراً ، هذان وامثالهما لم يشنهم ان يكتب الناس عنهم كل شيء وليس في حياتهم اسرار لم يفاخروا هم بها .

ولكن حالنا اليوم قد تغير ، فمحيطنا لا يستسيغ الفضائح .. وادباؤنا واديباتنا على الاخص اولئك اللواتي تكتمن، ومن يدري اي حرب دارت بين عقل الواحدة منهن وبين عاطفتها .. واي جهاد جاهدت وتضحيات ضحت لتبقي على سمعتها نقية وعلى احترام الناس لها حية ثم ماتت فجاء من يعتدي على قدس اقداس نفسها لا يرعى للموت حرمة .

ان مصيبتنا هي اننا نأخذ عن الغرب كل شيء ولو تصادم مع خلقنا وتقاليدنا.

والاديب ملك التاريخ ، ولا اعلم من الذي قالها ايضاً ، ولكنها غريبة على مسمعي .. ترى ماذا يهم التاريخ من حياة اديب ؟.. حياته الخاصة..؟ هب ان دي موباسان مات مجنوناً حقاً وهول كين مضطرب الاعصاب فقط والفرد دي موسيه مصاب بالصرع الى غير ذلك ، ماذا يهم التاريخ اذا لم تكشف حياتهم الخاصة مادام انتاجهم بين يدي التاريخ يضيف الى خزائن الادب ثروات ثمينة ؟ ولكن هب القول حقاً ، فهل كل من حمل قلماً ليكتب عن اديب ميت هو مؤرخ ... وهو انما يكتب للحقيقة وللتاريخ..؟

ان للمؤرخين صفات خاصة بهم اولها البحث الدقيق...وفي عشرات الكتب التي كتبت عن مي لم اقرأ لكاتب قابل اطباءها في مستشفى الامراض العقلية وعلم منهم بدقة ماذا كان مرضها ..: او بحث عن خدمها في ايامها الاخيرة واستقصى منهم شؤونها ..؟ فهل وجد من فعل هذا وفاتني الاطلاع عليه.؟ اتمنى ذلك !

ثم ان التجرد عن كل هوى هو صفة اخرى من صفات المؤرخ.. وأغلب ظني ان هذه الاشياء كانت امام عيني لطفي السيد عندما قال لمن وجدوا رسائل مي فودوا نشرها، كان هذا امام عينيه عندما قال، ومن الذي ولجكم بالتاريخ؟

ان ابن ياقوت صاحب المعاجم الثلاثة الشهيرة ، معجم الشعراء ومعجم الادباء ومعجم البلدان ، قضى حياته يسير على حماره من بلد الى آخر وينام في خان كل مدينة يبحث ويدقق قبل ان يكتب كلمة في معاجمه .

وهيرودتس ابو التاريخ كان ايام الفراعنة يتنقل من قطر الى آخر على جواده براً وفي المراكب الشراعية بحراً ، وبعد البحث والاستقصاء يكتب بالحرف الواحد.. « هذا ما رأيته بعيني رأسي » او يكتب « هذا لم اره ولكن قيل لي عنه » فتصور دقة المؤرخ .

وبعد فتلك ارائي الخاصة، وكم يسرني ان اسمع آراء الادباء في الموضوع فهو هام يستحق المعالجة .

اسمى طوبي